محاضرة05:

قضية المنظوم و المنثور

إنّ المقارنة بين الشعر والنثر قضية أفرزتها مستجدات ثقافية، شهدها العصر العباسي، فقد وُلِدَ فنٌ جديد هو فن الكتابة، الذي أتقنه كُتّابٌ مجيدون، ونافسَ النثرُ الشعرَ، والكاتبُ الشاعرَ، في ظلِّ ظروفٍ سياسية وفكرية، ولم يعد الشعر وحده يستوعبُ ضروبَ الجدل، والحوار والتناظر التي استجدّت حول قضايا عقليّة، وصوفيّة، وفلسفيّة. من هنا كثرت الآراء في المفاضلة بين الشعر و النثر، و بين مقام الخطباء و الكتّاب و مقام الشعراء.

واستخدم النقاد مصطلح المنظوم للدلالة على الشعر. يقول **ابن خلدون** في مقدّمته: " اعلم أن لسان العرب وكلامهم على فنّين: في الشعر المنظوم، وهو الكلام الموزون المقفّى و معناه الذي تكون أوزانه كلها على رويّ واحد وهو القافية، وفي النثر وهو الكلام غير الموزون، وكلّ واحد من الفنّين يشتمل على فنون و مذاهب في الكلام ".

واختلف النقاد في أيهما أفضل، ولمن يعود السبق و الشرف. وقد ذهب **الجاحظ** إلى أنّ الشاعر كان أرفع قدرا من الخطيب، فلما كثُر الشعراء و كثر الشعر صار الخطيب أعظم قدرا من الشاعر. وهو ما رأى به **أبي عمرو بن العلاء** أيضا في قوله: " كان الشاعر في الجاهلية يُقدّم على الخطيب، لفرط حاجتهم إلى الشعر الذي يُقيّد عليهم مآثرهم، و يُفخم شأنهم، ويهوّل على عدوّهم ومن غزاهم، ويهيب من فرسانهم، ويُخوف من كثرة عددهم، ويهابهم شاعر غيرهم. فلما كثر الشعر و الشعراء، واتّخذوا الشعر مكسبة ورحلوا إلى السوقة، وتسرعوا إلى أعراض الناس، صار الخطيب عندهم فوق الشاعر".

و يفضل **محمد بن عبد الغفور الكلاعي** المنثور على المنظوم لأن النثر أسلم جانبا، و أكرم حاملا و طالبا. ولعلّ الجانب الأخلاقي يبدو واضحا في موقف الكلاعي من الشعر فهو يرى في الوزن عيبا من عيوب الشعر. وهو سبب للتزّنم وهذا الأخير من باب الغناء

الذي يراه البعض رقية الزنا. ثمّ إن الشعر يَطلب على الكذب، وقلما يجيده إلاّ مكتسب به. ويستشهد الكلاعي في كتابه " **إحكام صنعة الكلام**" بحديث الرسول صلى الله عليه و سلّم: " لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحا خير له من أن يمتلىء شِعرا "، ثم يقول الكلاعي: " ولم يقل كتابة ولا خطابة، لأن الشعر داع لسوء الأدب.

ويورد **أبو حيان التوحيدي** في كتابه "**الإمتاع و المؤانسة**" آراء مختلفة لنقاد من الفريقين. فيقول :" و سمعت **أبا عابد الكرخيَّ صالح بن علي** يقول: النثر أصلُ الكلام و النظم فرعه، و الأصل أشرفُ من الفرع، و الفرع أنقصُ من الأصل، لكن لكلِّ واحد منهما زائنات و شائنات، فأما زائنات النثر فهي ظاهرة، لأن جميع الناس في أول كلامهم يقصدون النثر، و إنّما يتعرضون للنّظم في الثاني بداعيةٍ عارضة، وسبب باعث، و أمر معيّن ". وهذا يشير إلى نسبة الأولية و الأصل للنثر على الشعر ، كما يرى الكرخيّ أنّ من مزايا النثر أنه الشكل الذي جاءت به الكتب السماوية فيقول: " ومن شرفه أيضا أنّ الكتبّ القديمة و الحديثة النّازلة من السماء على ألسنة الرسل بالتّأييد الإلهي مع اختلاف اللغات كلّها منثورة مبسوطة، متباينةُ الأوزان، متباعدة الأبنية، مختلفة التصاريف، لا تنقاد للوزن، ولا تدخل في الأعاريض ". ويرى الكرخي أيضا أنّ من مزايا النثر الصفاء، و الوحدة، و البعد عن التكلف وهي صفات لا يمكن ضمانها مع متطلبات الضرورة الشعرية.

وفي نفس سياق تفضيل النثر على المنظوم يورد التوحيدي قول **عيسى الوزير**: " النثر من قبل العقل، و النظم من قبل الحسّ، ولدخول النظم في طيِّ الحس دخلت إليه الآفة، وغلبت عليه الضرورة " وهي ضرورة لا يخضع لها النثر. و كذلك ذهب **ابن طرّارة** من تفضيله النثر فيقول: " و لشرف النّثر قال الله تعالى في التّنزيل: " إذا رأيتَهُم حسِبتَهُم لُؤلُؤًا منثورًا" ولم يقل: لؤلؤا منظوما". ويشبّه ابن طرّارة النثر بالمرأة الحُرة، والنظم بالأمَة التي قد تكون أحسن وجها، و لكنها لا توصف بكرم جوهر الحُرة و لا بشرف عرقها، وعتق نفسها.

و إلى جانب هذه الآراء فقد توقف التوحيدي عند بعض ما يعتقد به أنصار المنظوم ممّن يُفضّلون الشعر على النثر من ذلك قول **السلاميّ**: من فضائل النظم أن صار صناعة برأسها، و تكلّم الناس في قوافيها، وتوسّعوا في تصاريفها و أعاريضها، و تصرَّفوا في بحورها، واطّلعوا على عجائب ما استُخزِنَ فيها من آثار الطبيعة الشريفة، و شواهد القدرة الصادقة، وما هكذا النثر، فإنّه قصّر عن هذه الذِّروة الشامخة، و القلة العالية، فصار بذلك بِذلةً لكافة الناطقين من الخاصة، و العامة، و النساء و الصِّبيان ". و يشير السلاميّ أيضا إلى إمكانية غناء الشعر لما فيه من إيقاع، و وزن وهو ما لا يمكن توفره في النثر.

وكذلك ذهب **ابن نباتة** في تفضيله الشعر لما فيه من حجج تبنى عليها قواعد النحو و اللغة، بقوله: " مِن فضل النَّظمِ أنّ الشواهد لا توجد إلاّ فيه، و الحجج لا تؤخذُ إلاّ منه، أعني أنّ العلماءَ و الحكماءَ و الفقهاءَ و النحويّين، و اللّغويّين يقولون: " قال الشاعر"، و " هذا كثير في الشعر"، و " الشعر قد أتى به ". فعلى هذا الشاعر هو صاحب الحجة، والشعر هو الحجة.

وتوقف التوحيدي أيضا عند **الخالع** الذي ذهب هو الآخر مذهب تفضيل المنظوم على المنثور و رأى أن التنافس بين الشعراء أمر ثابت، و معروف وهو ما يغيب بين أصحاب النثر، فيقول: " للشعراء حلبة، وليس للبلغاء حلبة، و إذا تتبَّعت جوائز الشعراء التي وصلت إليهم من الخلفاء، و ولاة العهود، و الأمراء، و الولاة في مقاماتهم المؤرخة، و مجالسهم الفاخرة، و أنديتهم المشهورة، وجدتها خارجة عن الحصر، بعيدة من الإحصاء، و إذا تتبّعت هذه الحال لأصحاب النثر لم تجد شيئا من ذلك ".

وكذلك رأى **المظفّر بن الفضل العلوي** في كتابه " **نضرة الإغريض في نصرة القريض** " بتفضيله الشعر على النثر لما فيه من خصائص فنية تساعد على إمكانية غنائه، وهو ما يغيب عن خصائص النثر، فيقول: " ومن فضيلة الشعر أن الكلام المنثور، و إن راقت

ديباجته و رقت بهجته، وحسُنت ألفاظه، وعذبت مناهله، إذا أنشده الحادي، و أورده الشادي ، ومدّ بصوته المطرب، ورفع به عقيرته المنشد، لا يحركّ رزينا، ولا يسلّي حزينا" أي أن المنثور وإن أُنشد فلا متعة، و لا حلاوة تستشعر عند سماعه، " فإذا حُوّل بعينه نظما، و وُسم لأوزن وَسما، ولج الأسماع بغير امتناع، و ملك القلوب" .

و يشير المظفر بن الفضل في موضع آخر إلى قيمة الشعر من حيث هو ديوان الأدب و فخر العرب، وبه تضرب الأمثال، ويفتخر الرِّجال على الرِّجال، وهو قيد المناقب، و نظام المحاسن، ولولاه لضاعت جواهر الحِكم. كما توقف المظفر عند قيمة الشاعر و أهميته في قبيلته، حيث "كانت العرب تعُدُّ الشعر خطيرا، وترى الشاعر أميرا، فإذا نبغ في القبيلة شاعرٌ هُنِّئت به، وحُسِدت من سببه، لأنه يُنافح عن أنسابها و يُكافح و يناضل عن أحسابها".

أما **المرزوقي** وهو أيضا من النقاد الذين خاضوا في مسألة المنظوم و المنثور، فإنّه في كتابه " **شرح ديوان الحماسة لأبي تمام**" تحدّث عن أسباب تأخر الشعراء عن الكُتَّاب و البلغاء، وهو ما يستدعي تأخر الشعر و تقدّم النثر، ويُجمل المرزوقي أسباب تأخر الشعراء في أمرين:

الأول: أن ملوكهم كانوا يفضلون الخطابة و يعدّونها أكمل أسباب الرياسة.

الثاني: أنهم اتّخذوا الشعر مكسبة و تجارة، وتعرّوا فيه لأعراض الناس.

كما بين المرزوقي أن شرف النثر يثبته ماجاء في الكتب السماوية، وأحاديث الرسول صلى اله عليه و سلّم التي كانت نثرا و ليست شعرا. أمّا عن قلة عدد المترسلين و البلغاء في مقابل كثرة عدد الشعراء، فإن المرزوقي أشار إلى طبيعة هذه الفنون النثرية التي تتطلب كثرة الاطلاع، ومراعاة لأمور معينة تقتضيها المواضيع محل الحديث. عكس مواضيع الشعر، و أغراضه من وصف الديار و الحنين إليها، وتشبيبٍ و تغزلٍ بالنساء، أو مديح و هجاء... فهي لا تستدعي ضرورة كثرة الاطلاع، و الثقافة.

وكذلك يرى **الثعالبي** بهذا الرأي في كتابه " **نثر النظم و حل العقد**" من أنّ طبقات الكتّاب كانت و لاتزال مرتفعة عن طبقات الشعراء. فإنّ الكُتاب وهم ألسنة الملوك إنّما يتراسلون في جبايةِ خَراجٍ، أو سدّ ثغر، أو عمارة بلاد، أو إصلاح فساد، أو تحريض على جهاد أو احتجاج على فئة، أو دُعاء إلى ألفة، أو نهي عن فرقة، أو تهنئة بعطية، أو تعزية في رزية، أو ما شاكلها من جلائل الخطوب، ومعاظم الشؤون التي يحتاجون فيها إلى أن يكونوا ذوي آداب كثيرة، ومعارف مقنّنةٍ، وفي هذا إشارة من الثعالبي إلى فضل النثر في المصالح المعاشية، و السياسية، و الإدارية وهو ما يقتضي بأن يكونوا ذوي آداب و معارف كثيرة، وذلك ما لا يشترط في الشعراء، بل و يغيب عند الكثير منهم.

أما **ابن رشيق** فإنه يصرّح بأن حاجة الناس إلى تدوين أيامهم، و تاريخهم، وتمجيد فرسانهم استدعت النظم، ويرى " أنّ الكلام كان كلّه منثورا فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها، وطيب أعراقها و ذكر أيّامها الصالحة، و أوطانها النازحة، وفرسانها الأنجاد، و سمحائها الأجواد، لتهزّ أنفسها إلى الكرم، و تدلّ أبناءها على حسن الشّيم فتوهّموا أعاريض جعلوها موازين الكلام، فلمّا تمّ لهم وزنه سمّوه شعرا، لأنّهم شعروا به، أي فطنوا" وفي سياق المفاضلة بين الشعر و النثر يقول ابن رشيق:" وكلام العرب نوعان: منظوم ومنثور، لكلّ منهما ثلاث طبقات جيدة ومتوسطة و رديئة . فإذا اتّفقت الطبقتان في القدر، و تساوتا في القيمة ولم يكن لإحداهما فضل على الأخرى كان الحكم للشعر ظاهرا في التسمية لأنّ كلّ منظوم أحسن من كل منثور" وواضح أن صاحب العمدة يميل كلّ الميل إلى الشعر، و سبب ذلك أنّه ألف كتابه في الشعر ونقده، و أنّه شاعر لذلك راح يردّ على الطاعنين في الشعر و لعلّ أبرزهم الثعالبي.

وإذا كان هناك من النقاد من انحاز إلى المنظوم، أو المنثور و راح يدافع عن رأيه، و يبيّن بالحجج، و الأدلة صحة ماذهب إليه، فإن هناك من رأى بالمساواة بين الشعر و النثر، و بأن لكلّ منهما خصائص فنية، وسمات تميّزه عن الآخر، وتضفي عليه رونقا خاصا به.

وقد أشار النقاد قديما إلى الفروق بين المنظوم و المنثور، و التي تشكّل اللغة و كذا الأسلوب أهم مظاهرها. فالبناء الخارجي، و الوزن و القافية، و اختلاف المواضيع بين النثر و الشعر، إلى جانب خصوصية، و طبيعة الشعر التي لا يمكن أن تتحوّل إلى خطبة أو رسالة، كلها أمور تميّز بين المنظوم و المنثور، و تجعل لكلّ منهما صبغة تميّزه عن الآخر. و هو ما أشار إليه بعض النقاد، وحاولوا انطلاقا من هذا التأكيد على أن الجودة لا تقتصر على واحد منهما بل يتساوى المنظوم و المنثور في إمكانية الوصول إلى حسن البناء، و التركيب. فقد رأى أبو هلال العسكري في كتابه " الصناعتين" أن الكلام عموما سواء المنظوم أو المنثور يحسُن بحُسن سلاسته، وسهولته، وتخيّر لفظه، و إصابة معناه وتعادل أطرافه " فتجد المنظوم مثل المنثور في سهولة مطلعه و جودة مقطعه، وحسن رصفه و تأليفه، وكمال صوغه، و تركيبه" . فالنظم و النثر يتساويان في شروط الجودة.

وفي السياق نفسه أي المساواة بين المنظوم و المنثور يرى أبو سليمان المنطقي أنّ للمنثور مزاياه ومثالبه و للمنظوم كذلك " فللنثر فضيلته التي لا تُنكر، و للنّظم شرفه الذي لا يُجحد و لا يُستر، لأن مناقب النثر في مقابلة مناقب النظم، ومثالب النّظم في مقابلة مثالب النثر، و الذي لابدّ منه فيهما السلامة و الدّقة ".

و يصرّح التوحيدي بأن " أحسن الكلام ما رقّ لفظه، ولَطُف معناه، وتلألأ رونقه، و قامت صورته بين نظمٍ كأنّه نثر، ونثر كأنّه نظم".